الدرس الرابع والعشرون :

كلكم لآدم وآدم من تراب

روى الإمام البيهقي ، من حديث جابر ﷺ ، أنَّ النبيَّ ﷺ ، خطب في خُطبة الوداع ، في أوسط أيام التشريق ، فقال : « **يا أيها الناس : إنَّ ربكم واحد ، وإنَّ أباكم واحد ، ألا لا فَضْل لعربيٍّ على عجمي ، ولا لعجميّ على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى** »[1].

وفي حديث آخر : رواه أبو داود والترمذي وحسنه والبيهقي : « **الناس بنو آدم وآدم من تراب** »[2].

الإسلام سَبَقَ كل الحضارات والثورات :

أيها الأخوة : قبل أن تسمع الدنيا عن الثورة الفرنسية وغيرها من الثورات ، وقبل أن يعرف الغرب مبدأ المساواة بأكثر من عشرة قرون ، جاء الإسلام وقرَّر هذه المساواة الإنسانية العامة ، مُناديًا الناس جميعا بهذا النداء الرباني : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣).

---

(١) رواه البيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (٥١٣٧) ، وقال : في هذا الإسناد بعض من يجهل ، عن جابر ، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (٣٩٦٣)، ورواه أحمد (٢٣٤٨٩) ، وقال محققوه : إسناده صحيح ، عن من سمع النبي ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٥٨٦/٣) .

(٢) ونصه :« إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقي وفاجر شقي ، والناس بنو آدم وآدم من تراب ، لينتهين أقوام فخرهم برجال ، أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان ، التي تدفع بأنفها النتن ». سبق تخريجه صـ ١٨١ .

المساواة الإنسانية العامة :

لا فرق إذن بين عُنصر وعُنصر ، ولا بين قوم وقوم ، ولا بين لون ولون ، إنه يحترم الإنسان من أي وطن كان ، وأي بلد كان ، ومن أي طبقة كانت ، دون تفرقة بين فئة وأخرى من الناس ، فكل الناس سواسية ، وكل المؤمنين أخوة ، ولا اعتبار للغنى أو الفقر في تقديم الناس أو تأخيرهم ، بل الواجب إنزالهم منازلهم ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، دون نظر إلى تلك الاعتبارات ، بل الإنسان في أي دين كان ، فإن اختلاف الأديان لا يُسقط عن المُختلفين إنسانيتهم ، ولا يخلعهم منها ، حتى إن النبي ﷺ قام لجنازة يوما ، فقيل له : يا رسول الله ، إنها جنازة يهودي . فقال : « أليست نفسا؟! »[1].

قيمة النفس الإنسانية واحدة للجميع :

بلى ، ولكل نفس إنسانية في الإسلام حُرْمة ومكان ، قد يختلف الناس في أجناسهم وعناصرهم ، فيكون منهم الآري والسامي والحامي ، والعربي والعجمي ، وقد يختلفون في أحسابهم وأنسابهم ، فيكون منهم مَن ينتمي إلى أسرة عريقة في المجد ، ومَن ينتمي إلى أسرة صغيرة مغمورة في الناس ، وقد يتفاوت الناس في ثرواتهم ، فيكون منهم الغني ومنهم الفقير ومنهم المتوسط ، وقد يتفاوتون في أعمالهم ومناصبهم ، فيكون منهم الحاكم والمحكوم ، ويكون منهم المهندس الكبير والعامل الصغير ، ويكون منهم أستاذ الجامعة والحارس ببابها ، ولكن هذا الاختلاف أو التفاوت لا يجعل لواحد منهم قيمة إنسانية أكبر من قيمة الآخر ، بسبب جنسه أو لونه أو حسبه أو ثروته أو عمله أو طبقته أو منصبه ، أو أي اعتبار آخر .

إنَّ القيمة الإنسانية واحدة للجميع ، ما دام الكل إنسانًا فهم إذن سواسية كأسنان المُشط الواحد .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٣١٢) ، ومسلم (٩٦١) ، كلاهما في الجنائز ، كما رواه أحمد (٢٣٨٤٢) ، والنسائي في الجنائز (١٩٢١) ، عن قيس بن سعد وسهل بن حنيف .

مبادئ الإسلام تُطبَّق في أرض الواقع :

لم يكتفِ الإسلام بتقرير مبدأ المساواة نظريا ، وتثبيته فكريا ، بل أكَّده عمليا بجملة أحكام وتعاليم ، نقلته من مجرد فكرة إلى واقع ملموس .

الناس سواسية في العبادات والشعائر :

من ذلك العبادات الشعائرية التي فرضها الإسلام ، وجعلها الأركان العملية لهذا الدين . . . ففي مساجد الإسلام ، حيث تقام صلاة الجمعة والجماعة ، تأخذ المساواة صورتها العملية ، وتزول كل الفوارق التي تُميز بين الناس ، فمَن ذهب إلى المسجد أولا أخذ مكانه في مُقدمة الصفوف ، وإن كان أقل الناس مالاً وأضعفهم جاها ، ولو نظرت إلى صف واحد من صفوف المسلمين ، لراعك أن تجد فيه الغني بجانب الفقير ، والعالم بجانب الأمي ، والشريف بجانب الوضيع ، والحاكم بجوار الخادم ، لا فرق بين واحد وآخر ، فكلهم سواء أمام الله ، في قيامهم وقعودهم ، وركعوهم وسجودهم ، قبلتهم واحدة ، وكتابهم واحد ، وربهم واحد ، خلف إمام واحد .

وفي الأرض المقدسة حيث تُؤدَّى مناسك الحج والعمرة ، تتحقَّق المساواة بصورة أكثر ظُهورا ، وتتجسَّد تجسُّدا تراه العين وتلمسه اليد ، فقد يظلُّ الناس في صف الصلاة يتمايزون بعض التمايز ، بما يلبسون من أنواع الثياب التي تختلف باختلاف البلدان والطبقات والمقدرة . . . أما في الحج والعُمرة ، فإن شعيرة الإحرام تفرض على الحجاج والمُعتمرين أن يتجردوا من ملابسهم العادية ، ويلبسون ثيابا بيضاء ساذجة ، لم يدخلها التكلُّف والتصنُّع ، أشبه ما تكون بأكفان الموتى ، يستوي فيها القادر والعاجز ، والملك والسوقة ، ثم ينطلق الجميع مُلبين بهتاف واحد : « لبيك اللهم لبيك »[1] .

---

(١) عن عبد الله بن عمر ﷺ : أن تلبية رسول الله ﷺ : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك». متفق عليه رواه البخاري (١٥٤٩)، ومسلم (١١٨٤)، كلاهما في الحج، كما رواه أحمد (٤٤٥٧)، وأبو داود في المناسك (١٨١٢)، والترمذي في الحج (٨٢٥) ، والنسائي في مناسك الحج (٢٧٤٩) ، وابن ماجه في المناسك (٢٩١٨) .

الناس سواسية أمام الحلال والحرام :

ومن المساواة العملية التي قرَّرها الإسلام قولا ، وطبقها فعلا ، المساواة أمام قانون الشرع وأحكام الإسلام ، فالحلال حلال للجميع ، والحرام حرام على الجميع ، والفرائض مُلزمة للجميع ، والعقوبات مفروضة على الجميع ، حاولت إحدى القبائل عند الدخول في الإسلام ، أن تُعفى من الصلاة حينا من الزمن ، فأبى عليها النبي ﷺ ، وقال : « لا خير في دين لا صلاة فيه »[1]. وحاول الصحابة أن يشفِّعوا أسامة بن زيد ، حِبَّ رسول الله ﷺ وابن حِبِّه ، في امرأة من قريش ، من بني مخزوم سرقت ، فاستحقَّت أن يُقام عليها حدُّ السرقة ـ قطع اليد ـ فكلَّمه فيها أسامة ، فغضب النبي ﷺ غضبته التاريخية المعروفة ، ووقف يخطب في الناس ، وقال كلمته التي خلَّدها التاريخ : « إنما هلك الذين قبلكم : أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله ، لو سرقت فاطمة بنت محمد ، لقطعتُ يدها »[2].

سبب هلاك الأمم السابقة :

هذا هو سبيل الهلاك في الأُمم ، أنهم يُعفون الشريف من العقوبة ، إذا سرق تُرك ولم يُقم عليه الحد ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، هذا هو سبب البلاء ، وهذا هو المدخل إلى الانهيار . . . انهيار المجتمع كله .

هذا هو الذي يهدم المجتمع ، ويورث الأحقاد في النفوس ، « وايم الله : لو سرقت فاطمة بنت محمد ، لقطعتُ يدها ». برأها الله ، ومعاذ الله أن تسرق ، لكن لا بد من تقرير المبدأ على كلِّ الناس .

---

(١) رواه أحمد (١٧٩٤٢) ، وقال مخرّجوه : رجاله ثقات رجال الصحيح ، غير أن في سماع الحسن من عثمان اختلاف ، وأبو داود في الخراج والإمارة (٣٠٢٦) ، والطيالسي (٩٣٩) ، والطبراني في الكبير (٥٤/٩)، والبيهقي في الكبرى جماع أبواب الصلاة (٤٤٤/٢) ، عن عثمان بن أبي العاص ، ونصه : « . . . ولا خير في دين ليس فيه ركوع ».

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥) ، ومسلم في الحدود (١٦٨٨) ، كما رواه أبو داود (٤٣٧٣) ، والترمذي (١٤٣٠) ، كلاهما في الحدود ، والنسائي في قطع السارق (٤٨٩٥) ، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤٧) ، عن عائشة .

فاطمة . . . صغرى بنات النبي ﷺ ، وأعزُّهنَّ عليه وأحبُّهنَّ إليه ، يضرب بها المثل : « لو سرقت لقطع محمد يدها ».

هذا هو العدل ، هذا هو عدل الله الذي لا يفرِّق بين إنسان وإنسان ، ولا بين أسرة وأسرة ، ولا بين طبقة وطبقة ، ولا بين أمة وأمة . ولا بين مخلوق ومخلوق ، ما داموا كلهم عبادًا لله ، فليُقَم عليه شرع الله ، وليقم عليه حدُّ الله . . . وهذا هو بدء الخير والعدل بين الناس ، وترك هذا هو بدء الشر والانهيار . . . بداية الهلاك .

التمييز بين الناس في بعض الدول والديانات :

هناك دول وشرائع وحضارات تميِّز بين الناس بعضهم وبعض بحسب اللون ، فللأبيض من الحقوق ما ليس للأسود . أو بحسب العِرق ، فللجنس الآرى ما ليس لغيره ، وللجنس اليوناني ما ليس لغيره ، حتى عند أرسطو اليوناني سيدا لكل جنس سواه ، أو بحسب الطبقة ، فطبقة النبلاء غير طبقة الفرسان ، غير طبقة التجار غير طبقة الفلاحين والعمال .

وبعض الديانات كالهندوسية ، تعتبر الطبقات قَدَرِيَّة تُتوارث ، ولا تقبل الترقِّي ولا التغيير ، فمَن كان في طبقة دنيا ، يظلُّ فيها أبدًا هو وذرِّيته إلى يوم القيامة ، لا يستطيع أن يترقَّي إلى درجة أعلى ، ولو حصَّل كلَّ شهادات العالم ، ونال جائزة (نوبل) ، أو ما هو أعلى منها .

ولكن المساواة عندنا فريضة ثابتة بنصوص مُحكمة ، من الله ورسوله ، ومدعومة بإجماع الأمة في مختلف مدارسها ومذاهبها ، ومُثبَّتة بشعائر الإسلام وعباداته العملية والعلمية ، ولا يمكن لأحد العبث بها بحال .

نسأل الله عزَّ وجل أن يفقهنا في ديننا ، وأن يقفنا عند حدوده ، وعند أوامره ونواهيه ، إنه سميع قريب .

* * *